كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني
رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

أيها الحفل الكريم

لقد حالت ظروفٌ عائلية خاصة دون تمكّن مجمعنا من القيام بواجب التأبين لفقيدنا الأستاذ شحادة الخوري رحمه الله، ليكون ذلك ضِمنَ المدة المعتادة التي تلي رحيل كلٍ من أعضاء مجمعنا. ويرى المجمع أن حفل التأبين لا يعني اعتماد عباراتِ الإطراء والتقريظ للفقيد، بل هو مناسبةٌ لإبراز ما قدّمه في مجالات خدمةِ اللغة العربية والمشاركةِ في تطويرها، والتعمُّقِ في طاقاتها، وصولاً إلى إبقائها منارةً تضيء لنا الطريق للوصول إلى المعاصَرة دون التخلّي عن ذاتيتنا الثقافية.

ونحن اليوم في تأبيننا لفقيد مجمعنا الأستاذ شحادة الخوري، نحاول استعراضَ المجالات الفكرية التي ساهم في توضيحِ منطلقاتها، فقد كان مثقّفاً مفتوحاً على التاريخ العربي، متمسكاً بالقيم الإنسانية التي انصبّت في اللغة العربية على مدار السنين، مؤكِّدًا أهمية الحوار بين الثقافات مفتاحاً لاستكمال إنسانية الإنسان.

ذلك لأنه بعد أن غلبت تيّارات الحداثة على نواحٍ عديدة من حياة مجتمعاتنا، حاملةً إلينا سَرداً لا ينقطع عن أحداثٍ وتغيّراتٍ ونظرات، بدأ ذلك يَفرِض علينا وقفةً نتساءل فيها: ما هو واقع الإنسان من مجريات الدهر التي تعصف بالمجتمعات، غير آبهةٍ بما وصلت إليه القناعات السائدة في عالم اليوم، بأنّ الإنسان كائنٌ يمثّل أعلى مستوى وصلت إليه المخلوقات، ويجب أن يحتلّ الصدارة في كل اهتمامات العصر، تقديراً لطاقاته الفكرية.

إن هذه الوقفة تُدخلنا إلى آفاق قِيميّة تشترك فيها جميع الثقافات التي جعلت الإنسان محوراً تُسلِّط عليه الأنوار وهو محاطٌ بنتاجِ العقول، ليمكن توضيحُ الحقائق التي لابد من مُراعاتها ليستحقّ الإنسان التمتّعَ بما تفرضه إنسانيته من شروط.

أيها الحفل الكريم

ولد فقيدنا عام ١٩٢٤ في بلدة صيدنايا الحاملة للعديد من الأصداء التاريخية في سورية، وكانت دراسته الأولى في المدرسة الآسية العريقة، في حي القيمريّة في دمشق القديمة. ولعل رنين التاريخ في هذه البقاع السورية يفسّر ما ظهر في إنتاجه من اهتمامٍ كبير بالتاريخ العربي.

وبعد أن نجح في جزأي البكالوريا عام ١٩٤٣ التحق بكلية الحقوق في الجامعة السورية وتخرج فيها عام ١٩٤٧،إلا أنه لم يلتفت إلى ممارسة المحاماة كما هي عادةُ خريجي الحقوق، بل آثر العمل مدرساً للغة العربية في المدارس الإعدادية الرسميةحتى عام ١٩٥٨، حين بدأ العملَ في وزارة التعليم العالي مديراً للترجمة والنشر، بعد أن أطلقت الوزارة برنامجاً لترجمة الكتب العلمية من اللغات الأجنبية لتكون مراجعَ لطلاب الجامعة في الفروع العلمية. وكان قد انتسب إلى كلية الآداب (قسم اللغة العربية) عام ١٩٥٤ ونال الإجازة منها عام ١٩٥٧.

ولعل أهم مرحلة في حياته كانت عام ١٩٨١ حين اختير خبيراً لوحدة الترجمة بإدارة الثقافة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس، إذ إنها المرحلة التي طبعت مسارَه الثقافي، وحددت له تخصصاً جَعَله من أعلام شؤون الترجمة في الوطن العربي، بعد نشر كتابه "دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي" وقد كان من مؤسسي المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف، الذي مازال يؤدي مهامه حتى الآن، كما كان أحد مؤسسي اتحاد الكتاب العرب.

ثـم إن عودتَـه إلـى دمشـق عـام ١٩٨٨ قـد أتاحـت لـه الفرصـة لنشـر عـدد مـن الدراسات والبحوث القيمة فـي موضـوعات تـرتبط بكثيـرٍ مـن شـؤون تطـوير اللغـة العربية، وتحديدِ متطلبات الرقيّ الحضاري، إلى جانب عددٍ مـن البحـوث التاريخيـة التي تضيء بعض الزوايا الهامة في التاريخ العربي، من حقائق العُهـدة العمريـة، إلـى كتاب" بين دمشق والقدس"الذي يعرض فيه بعض النقاط الهامة في تاريخ المـدينتين، كما أضاف إلى ذلك بحوثاً أخرى في مجالات اللغة العربية.

أيها الحفل الكريم

لا شك بأن موضوع الترجمة بقي غالباً على نشاطات فقيدنا الفكرية، فهو لم يعتبـر الترجمةَ أداة من أدوات المثاقفة، تجعل النصّ المنقول إلى العربيـة مُتسـلطاً علـى فكـر المتلقّي، بل كان يعود إلى تلك المكانة العالية التي تَسنّمها التراجمـة السـوريون، حـين نقلوا العلوم والفلسفة الإغريقية إلى اللغة العربية، التي كانت قد بلغت أعلى مسـتوياتها فـي الـنصّ القرآنـي، فـإنّهم كـانوا بـذلك يفتحـون مسـاراتٍ فكريـةً يمكـن للعـرب أن يسلُكوها للوصول إلى حقائقَ علميةٍ مؤسِّسةٍ للحضارة الباسِقة التي وجـدوها فـي بـلاد الشام، وهي حقائقُ يضيفونها إلى ماكـانوا يحملونـه مـن أصـداءٍ ثقافيـة عربيـة وصـلت إليهم صادرةً عن مملكتين عربيتين ، إحـداهما فـي الحيـرة مجـاورةً للثقافـة الفارسـية، والثانية في بصرى الشام مجاورةً للروم، وكانت تلك الأصداء ترافـق القوافـل التجاريـة الناقلة للبخور، أو تلك الحاملةَ للحرير إلى دمشق، ملتقى الحضارات.

ونحن اليوم نواجه حضارةً غالبة على عالمنا، تطفو على سطح الأحداث غير عابئة بأحوال الشعوب، وبما تُحدثه فـي حيـاتهم مـن التغيـرات. وهـذا مـا يجعـل الثقافـات القديمةَ العريقة تطرح تساؤلاً كبير الأهمية: كيف يمكن لها الوصولُ إلى لُبِّ منطلقـات الحضارة الحديثة، للوقوف على المُحرّكات الأصلية التي تضمن استمرارَها وارتقاءَها،

ولا شك بأن هذا لايكون إلا بمحاولةِ النفوذ إلى الفكر الذي اعتمده القائمون على تحقيق تلك الإنجازات الحضارية الباهرة، أي إن الهدفَ هو التعرّف بالآخرِ المُستَترِ وراء ذلك الفكر المُنتج، والناطقِ بلغاتٍ أخذت تسيطر على الفكر العالمي. إنها حالةٌ تكشف قصورَ اللغات القومية في مجال اللحاق بالتيارات الفكرية العالمية إلا عن طريق الترجمة المترافقة بتحديثِ اللغات الوطنية، لتتمكن من استيعاب نِتاج الفكر المتطوّر الحامل للتساؤلات الوجودية، إلى جانب الإنجازات المرتبطة بتقانات جديدة، وهذا ما يسمح للثقافات المُسْتقبِلة أن تحدّدَ موقعها في عالمٍ حافل بالمتناقضات. ولا شك بأن إتقانَ الترجمة، واعتمادَ المقابلات العربية الدقيقة للمصطلحات العلمية الغازية، هو الذي يَحُول دون تشظّي مجتمعاتنا بالتحاق الأفراد بما يصلهم من الحضارة العالمية، محمولاً على عبارات فِجَّة، لا يمكن أن يكون فهمُها سهلاً على من اعتادوا فصاحةَ لغتهم، وما تحمله من عُمق حضاري جَعَلَها قادرةً على إيجاد علاقةٍ حية متحركةٍ بين الأفراد، وبين الإنتاج الفكري العالمي في أعلى مستوياته.

أيها الحفل الكريم

أختم كلامي قائلاً إن مسار حياة الأستاذ شحادة الخوري هو مزيج من صلابة صخور صيدنايا في مواجهته لكل ما يسيء إلى اللغة العربية، ومن طراوة الفكر الحر الذي يدخل إلى أعماق المشكلات ويثابر على تأكيد قناعاته فيها.

ولا شك بأن العام الثاني بعد الألفين كان عام التقدير الرسمي لمسار فقيدنا، فقد انتخب فيه عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية حيث عرفناه ذهناً متفتحاً دقيق التمييز يعتمد لغة متينة للتعبير عن فكره. كما انتُخب في العام ذاته رئيساً لاتحاد المترجمين العرب، وهو منصب مازال شاغراً بعد وفاته.

وشكراً لكم على مشاركتكم لنا في هذا التأبين.. والسلام.